

قصة الرافعي العاشق^(*)

تعقيب

الأستاذ محمد سعيد العريان

—❦—

... هذه قصة الرافعي وفلانة، كما رواها لي، وكما يعرفها كثير من خاصته. وإني لأعلم أن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب، وسيستأولونها بالريّة والشك، وسيقول قائل، وسيدعى مدع، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلمل؛ ولا على من كل أولئك ما دمت أروى القصة التي أعرفها، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير أي تأثير يُرَدُّ إليه أكثر أدبه من بعد. وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتيبه الثلاثة: رسائل الأحران، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد. وحسبي أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد!

على أنني مسئول أن أبرئ نفسي أمام قدس الحق؛ فأعترف هنا بأن ما رويت من هذه القصة كان مصدره الرافعي نفسه؛ مما حدثني به وحدث أصحابه، أو مما جاء في رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته؛ وما بي شك فيما روى من هذا الحديث؛ فما جربت عليه الكذب، ولا كان هناك ما يدعوه إلى الاختراع والتزيد كما يزعم من يزعم؛ ولكنها حقيقة أثبتتها للتاريخ، لعل باحثاً مدققاً يوفق في غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له على أن الرافعي قد قرأني رسالة أو رسالتين بخط (فلانة) إليه؛ وهما وإن لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب، لا تنفيها كذلك، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفي؛ والحذر طبيعة الرأفة.

ثم إن الرافعي لم يخصني وحدي برواية هذه الحادثة؛ فإن عشرات من الأدباء في مصر قد سمعوا منه؛ ومنهم من يعرف (فلانة) معرفة الرأي والنظر، ومنهم من كان ينشئ مجلسها لا يتخلف عنه مرة؛ ومنهم من كان الرافعي يقصد بالحديث إليه

(*) من كتاب (حياة الرافعي) الذي يصدر قريباً.

أن يكون يريد أن ينقل إليها حديثه شفة إلى شفة. وفي الناس بُرْدٌ إن لم تُرَدَّ على ما سمعت من حديث الحب لم تنقص منه شيئاً! فلو أن الرافعي كان يتزيد فيما روى لي ولأصحابي من حديث هذا الحب لخشي منقبة أمره؛ وإن (فلانة) يومئذ ذات جاه وسلطان! وتمة برهان آخر لا يتناوله الشك؛ هو رسالة من رسائلها لقلها الرافعي من كتاب من كتبها المعروفة لا أسميه، إلى كتابه أوراق الورد^(١)؛ يزعم أنها رسالة منها إليه في كتاب، جواباً على رسالة بعث بها إليها — وكانت هذه بعض رسائلهما في الرسالة كما رويت من قبل^(٢) — وأوراق الورد معروف مشهور، وكتابتها معروف مشهور كذلك. وبما لا يحتمل الشك أن تكون (فلانة) لم تقرأ هذه الرسالة في كتاب الرافعي ولم ينسها أحد إليها. وأبعد من الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك في كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعي؛ ولا شيء وراء ذلك إلا أن تكون قرأت، وفهمت، وسكت؛ ولا شيء بعد؛ إلا أن يكون بينهما شيء يؤيد ما رواه الرافعي من قصة هذا الحب...

على أن اعتراضات ثلاثة توجهت إلى ما رويت من هذه القصة لا بد من التنبيه إليها: أما أحدها فن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم؛ فهو ينكر على أن أستند إلى هذه الرواية، ويروي لي أنه سجد الرافعي في أولى زيارته لفلانة، وشهد ما كان من تأثير الرافعي وانفعاله وجذبه؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعي وفلانة صلة بعد هذه الزورة، ويصحح ما رويته عن الرافعي — وكان من سامعيه — بأنه حب من طرف واحد، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشبهه للرافعي ما شبهه؛ فما يحكيه هو صورة ما في نفسه لا صورة ما كان في الحقيقة!

فالرافعي عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر. وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج بأن صلة ما كانت بين الرافعي وفلانة بعد الزورة الأولى، لا ينفي أن هذه الصلة كانت حقيقة ولم يعلم بها؛ لحديثه من ثم لا ينفي شيئاً

(١) أوراق الورد من ١٤٣ إلى ١٥٠، وتقرأ فقرات منها في هذا الكتاب من ٩٤ - ٩٦.

(٢) من ٨٣ من هذا الكتاب.

بالأمل في لقائها إلى شتاء سنة ١٩٣٥، وكنت معه لما تمّ زيارتها^(١) وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكي مبارك؛ وما كان لي أن أثبت هنا لولا أن أثبتته هو في كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب، ولولا أن أشار إليه في مقالات نشرها في مصر وفي العراق وفي بيروت!

والدكتور زكي مبارك أديب مشهور، ولكن آفته - ولكل أديب آفة - أنه يدس أنفه فيها بعينه وما لا يعنيه؛ وهو قد شاء أن يحشر نفسه في هذه القصة التي لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس - والإعلان عن نفسه بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى (فلانة) جنباً للجنب في الجامعة المصرية بضع سنين! وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زكي مبارك جنباً للجنب إلى فُلانة أو إلى نساء الأرض جميعاً - كما يريد أن يتسلم عنه الناس في أكثر ما يكتب - ولكنه يزعم أن ما كتبنا عما كان بين الرافعي وفُلانة ليس من الحقيقة في شيء، لأنه كان يجلس مع فُلانة جنباً إلى جنب في الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوماً أن جبا كان بينهما وبين الرافعي !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة في أدب الدكتور زكي مبارك، فليقرأ هذه الحجة البالغة؛ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكي مبارك لا يجلس إلى (فلانات) ولا يجلس إليه (فلانات) إلا ليحدثه عما كان لهن من جولات في ميادين الحب ويسأله الرأي والمؤنة!

وليدع القاري بعد ذلك حديث الدكتور عن العري والمرأة، وعن (الأديب المريان ...) الذي روى هذه القصة وعفا الله عن أهل الأدب!

هذا كل ما تلقيت من اعتراض المعارضين، من أهل الأدب أو من أهل الدعوى؛ وعلى أي الوجه اتهم رأى الأدباء في تحقيق هذه القصة، فإنه مما لا شك فيه أن الرافعي كان يحب (فلانة)؛ وهذا حسبي؛ فما يعني من هذا التاريخ إلا إثبات المؤثرات التي كانت تعمل في نفس الرافعي فتلهمه الشعر والبيان؛ أما هي وما كان منها وحقيقة عواطفها، فشيء يتصل بتاريخها هي بعد عمر مديد!

محمد سعيد العريانه

(١) أنظر ص ٨٤ من هذا الكتاب

ولا يثبت، ويبقى بعد ذلك ما يستنبط من الرأي على هامش القصة وقريب مما يرويه الأستاذ جورج، ما تستنبطه جريدة المكشوف في بيروت، في حديث تناولت به بعض ما نشرنا من قصة حب الرافعي

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف - محرر المقتطف - على ما روينا، قال:

«لقد سمعت هذه القصة من الرافعي كما رويتها؛ فما أشك في صحة ما تكتب، ولكني أسأل: هل كانت (فلانة) تبادل الرافعي الحب؟ ...»

«هاك خبراً يدعوك مني إلى هذا السؤال:

«في يناير من سنة ١٩٣٤ (أو ١٩٣٥) دعيتي فُلانة إلى مقابلتها؛ فلما شخصت إليها رأيت في وجهها لوناً من الغضب فدفعت إليّ رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعي إليها لأرى رأيي فيهما؛ ثم قالت: ماذا تراني أفعل لأدود عن نفسي؟ أتراني أتقدم في ذلك إلى القضاء؟

قال الأستاذ صروف: «فاعتصمت بالصمت من لا ونعم، وتركتم لها أن تستشير غيري؛ ولست أدري ما كان بعد ذلك!» قلت: وهذه رواية جديرة بأن تذكر - ومعذرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف - على أنها لا تدل على شيء في هذا المقام أكثر من أن فُلانة لم يكن يروقها في سنة ١٩٣٤ أن يتجسب إليها الرافعي؛ فإذا كان أمره وأمرها معه قبل ذلك بمشر سنين؟ أليكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف - صلة بما كان في نفس الرافعي من يقين بأنه سوف يلتقي فُلانة ليعمل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة^(١)» أعني: هل حاول الرافعي - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلباً يستجيب لدعائه؟ على أن هذا الخبر - أيضاً - لا يثبت شيئاً ولا يثبت؛ ولكنه يفتح باباً إلى الاستنباط والرأي

ولكنه مما لا شك فيه أن الرافعي لم يكن يعلم شيئاً عن وقع هاتين الرسالتين في نفس صاحبه؛ ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل الرافعي على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين، وإلا لما ظل يتعلق

(١) اقرأ ص ٩٠ - ٩١ من هذا الكتاب